سمو الغاية

في شعر المناسبات عند حافظ إبراهيم

الأستاذ الدكتور

أحمد عبدالغفار عبيد

أستاذ الأدب والنقد بالكلية

سمو الغاية

في شعر المناسبات عند حافظ ابراهيم

للأستاذ الدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد
أستاذ الأدب والنقد بالكلية

أحاطت بشعر المناسبات عند أقطاب المدرسة المحافظة شبهات وأوهام عديدة ، تراكمت في أذهان كثير من الدارسين للأدب العربي الحديث ، وكان ذلك بتأثير الحملة التي قادها ثالوث الطليعة العقاد والمازني وشكري ، وأصابت فيما أصابت شعر المحافظين عامة وشعر شوقي وحافظ خاصة بحسبانهما أبرز رواد ذلك الاتجاه ومن ثم كانا هدفا مباشر لنقدات العقاد ورفاقه ، وركزت تلك الحملة فيما يخص حافظا على هنات لا يخلو منها شعر شاعر فضلا عن أن يكون رائدا من رواد الشعر وفارسا من فرسانه له نتاج غزير ومشاركات شعرية متنوعة مثله ، كما أثارت شبهات غير موضوعية عن شعر المناسبات عنده وشككت في قيمته ودلالاته .

بيد أن القراءة المستأنية ، والتأمل المستبصر يدفعاننا للإعجاب بشعر حافظ وتقدير شاعريته والكشف عن معالم عبقريته الشعرية . ومن تلك الجوانب التي لم تنل حظها من عناية الباحثين في شعر حافظ – جانب تأمل دلالات شعر المناسبات عنده ، وما حفلت به قصائده من معان سامية وغايات نبيلة ، ارتفعت بذلك الشعر عن أن يكون من قبيل المجاملات التي تتطلبها العلاقات الاجتماعية أو الصلات الخاصة أو حتى الرغبة في حضور الشاعر وذيوع صيته . لا . لم يكن شعر المناسبات عند حافظ من ذلك القبيل ، ولم تكن تلك غاياته ، ولا كانت هذه المقاصد الدنيا مقاصده .

إن شعر المناسبات عند حافظ إبراهيم لهو شاهد ناطق ودليل ماثل على نبل غاياته وسمومقاصده .

لقد كان الشاعر الذي لقب بحق شاعر النيل يحمل بين جنبيه هموم أمته وشواغلها وآمالها وما تصبو اليه نفوس الشرفاء من أبنائها وما يعتمل في عقول ووجدانات زعمائها ، وأرباب الفكر النبهاء من أبنائها المخاصين .

لقد أجلت الرأي في شعر المناسبات عند حافظ وكلما أنعمت النظر فيه ألحت علي تلك الأفكار ومثلت في خاطري تلك المعالي واحتشدت تلك الرؤى ، ألا ما أعظم أولئك الشعراء الذين يجعلون من هموم أمتهم هاجسهم الدائم وشغلهم الشاغل وأنفاسهم المترددة !.

ودليل ذلك أن حافظا في معظم ما قاله من شعر المناسبات لم يدع فرصة تسنح له إلا قدم لسامعيه درسا من دروس الوطنية ، ومبدءا من مبادىء الإخلاص للوطن ، والولاء للأمة ، والسعي الحثيث لرفعتها ، ورفع نير الظلم عنها ، وإزالة الغبار عن أمجادها ومآثرها ، والاشادة برجالاتها ، والإعجاب بما يلوح في الأفق من أعمال أبنائها النوابغ في شتى ميادين الفكر والإصلاح والنهضة .

وحسب حافظ أن يكون شعر المناسبات عنده زاد روحيا يجمع النفوس على حب مصر والعروبة والولاء للأمة الاسلامية ، والعمل لما يرفع شأنها ويدفع عنها الغوائل .

وإنطلاقا من هذا التقدير لشعر حافظ أرى أن أدل القارىء على ما يشهد بذلك من شعره وما ينطق بتلك الميزات التى ينبغي أن تكون نصب أعيننا إذا ما أردنا أن نقدر شعره ونزن شاعريته .

والشىء الذي يستأهل أن نضعه في الحسبان أن ما لاحظته على

شعر المناسبات عند حافظ لا يقتصر على نوعية بذاتها ، كالشعر السياسي الذي تقتضي موضوعاته إثارة تلك الأفكار الإصلاحية والدعوة اليها والإشادة بها . ولكنه كما سنعرض له من شعره يمتد فيشمل مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية وحتى الإخوانيات . وفي ذلك دلالة على أن حافظا كان يدرك أن غاية الشعر ينبغي أن تخدم معنى ساميا أو هدفا شريفا أو غاية نبيلة .

اننا نجد أنفسنا ونحن نقرأ شعر حافظ المرتبط بالمناسبات أمام فيض من المعاني الرفيعة والأفكار الإصلاحية السامية التي تتبعث من واقع الأمة وترمي الى انهاضها ، وترنو إلى مستقبلها المأمول ولا تغفل في وقت من الأوقات عن تنبيه أبنائها وإيقاد الحمية في نفوسهم ليتخلصوا من المثبطات ويتساموا على المصالح الشخصية ، ويحتشدوا من أجل النهوض ، ويصمدوا في مقاومة معاول الهدم التي يسلطها الأعداء على كيانهم ، ويعقدوا العزم على التخلص من أدوائهم الاجتماعية ، ويستحثوا الهمم والعزائم من أجل الوصول بأمتهم الى مصاف الأمم الراقية التى تضمن لنفسها مكانا يليق بماضيها ويتفق مع قدراتها ومقدراتها .

وعلى الرغم من أن المناسبة لا تكاد تدع شيئا من ديوان حافظ . فمعظم شعره قصائد ارتبطت بموقف ما أومناسبة معينة ، ومع ذلك لا تخلو كل قصيدة منها من تلك الومضات الدالة والأفكار الصلاحية الرائدة ، واللفتات المعبرة عن روح حافظ الباحثة دوما عن الهدف النبيل والغاية السامية والباقيات الصالحات .

* * *

وسأعرض للقارىء هنا أمثلة من شعر المناسبات عند حافظ يتضح منها ما أشير اليه وأنوه به في هذه المقالة ، وسيلحظ القارىء تنوع

موضوعات الشعر ومناسباته واختلاف تلك المناسبات في استثارة الاهتمام أو إثارة الخواطر الشاعرة ومع ذلك لا تخلو القصيدة من محور غائي مهم يسمو اليه حافظ ويحوم من حوله ويجعل شعره ناظرا اليه . فكأنه لم تكن تشغله الأحداث الواقعة عن تأمل دلالاتها واستلهام العبرة واستخلاص القيمة الباقية ، والهدف الذي ينبغي أن يحرص عليه .

هذه إحدى قصائد شاعر النيل ومناسبتها أن الزعيم سعد زغلول تعرض لإعتداء أثيم في محاولة لأغتياله في الثاني عشر من يوليو 1924 وهو في طريقه لركوب القطار من القاهرة الى الاسكندرية ليلتقي الملك ومن ثم يسافر إلى انجلترا لمفاوضة الانجليز . وكانت علاقة حافظ بالزعيم قوية وصلته به مشـــهرة فأنشـأ إذ علم بالحادث قطعة شعرية نشرت في اليوم التالي يهنىء فيها سعدا بالنجاة ثم أقام أعضاء البرلمان حفلا في الرابع والعشرين من الشهر نفسه بالاسكندرية تكريما للزعيم وابتهاجا بنجاته من حادثة الاعتداء عليه وأنشد حافظ في ذلك الحفل قصيدته التي نعنيها هنا ومطلعها :

الشعب يدعو الله يازغلول أن يستقل على يديك النيل

وتبلغ عدة أبياتها ثمانية وخمسين بيتا تناول فيها الأفكار والجزئيات التالية :

1- تهنئة سعد بالنجاة من حادث الاعتداء عليه والاشادة بزعامته وأنه معقد أمل الأمة في الاستقلال ، وقد عبر الشاعر عن تلك المعاني في ثمانية أبيات .

2- حث الزعيم على اليقظة وأخذ الحذر في المفاوضات والتنبه لمكائد الانجليز وأحابيلهم وتسويفهم – وقد عالج ذلك في اثنين وعشرين بيتا .

3 – التعبير عن مساندة الأمة لزعيمها وابتهاجها بسلامته ، ومطالبتها له

بأن يفاوض من موقع القوة التي يمنحها له حق الأمة المشروع في الحرية والخلاص من نير الاستعمار وأن لا يرضى الزعيم بذلك بديلا . لأن الأمة لن تقبل دون ذلك ويشغل ذلك أربعا وعشرين بيتا .

4- تحية الشباب المصري شباب الثورة الذي تعرض للسجن والقتل والتنكيل في سبيل نصرة وطنه وكرامة أمته وذلك في أربع أبيات .

وبتأمل هذه الأفكار الجزئية ومبلغ ما أخذ كل منها من جهد حافظ وعنايته يتضح لنا أن الشاعر جعل حفليته قلادة كل درة فيها تعبر عن أمل تتوق الأمة لبلوغه ومجملها بيان للأمل المعقود على الزعيم ، والمسئولية الملقاة على عاتقه والمهام الجسام المنوطة برحلته التى يزمع الشروع فيها وكأن حافظا يهيب بالزعيم الذي وجلت القلوب لما تعرض له أن يدرك سبب هذا الوجل ، وسر ذلك الخوف إنه ليس خوفا من أجل تعرض شخص واحد للقتل بل وجل من أجل أن هذا الشخص هو نبض الأمة ومعقد رجائها ومحط أنظار المخلصين من ، أبنائها وتأمل ما يقوله حافظ معبرا عن ذلك حاكيا عن مصر وقد فزعت لنبأ العدوان على زعيمها :

كادت تجن وقد جرحت وخانها صبر على حمل الخطوب جميل
لم يبق فيها ناطق إلا دعـــا لك ربـــه ودعـــاؤه مقبـــول
لولا دفاع الله لانطوت المـــنى عند انطوائك وانقضـــى التـأميل
شـلت أنامل من رمى فلكفـــه حز المـدى ولكفك التقبيـــل

إن القارىء لهذه القصيدة لا يكاد يجد فيها معنى يدل على إشادة تعود إلى شخص سعد بمعزل عن زعامته أو دوره المأمول في النضال لنصرة قضية بلاده فهو في القسم الأول الذي المحنا إلى محتواه يقول مخاطبا الزعيم :

ياسعد أنك أنت أعظم عـدة زخرت لنا نسطو بهـا ونصول
ولأنت أمضى نبلة نرمى بها فانفـذ وأقصـد فالنبـال قليـل
إنا رميناهم بنـدب حـول عن قصد وادي النيل ليس يحول
باشدنا بأسا وأقدمنـا علـى خوض الشـدائد والخطوب مثول
بفتى جميع القلب غير مشتت إن مالت الأهـرام ليس يمـيل

فانظر الى تلك الصفات التى خلعهـا علـى سعد أو بعبـارة أدق التـى استلهمها من شـخصية سعد وألحت علـى خـاطره فـي ذلـك المقـام إنهـا المضاء وقوة العزيمة ورباطة الجأش وندرة المثـال . وقد كـان سـعد ذا ميزات ذاتية عديدة عرف بها وشهر بـامتلاك ناصيتهـا ولكـن حافظـا لـم يكـن مشـغولا بـذات الزعيـم أو ببيـان مكونـات شـخصيته بقـدر مـا كـان مشغولا بالموقف العام الـذي أحـاط بالمناسبة وأملـى علـى قريحتـه تلـك الحفلية الرائعة .

وهكذا نجدنـا أمـام أصـداء شـاعرة تعيش المناسبة بكـل تداعياتهـا وإيحاءاتها ولا تشـغل عـن ذلـك بالقشـور أو تزجيـة القـول فـي عبـارات المجاملـه التـى يظـن خصـوم شـعر المحـافظين أنهـا كـانت قـوام شـعر المناسبات عندهم .

* * *

واليكـم قصيـدة أخـرى تختلـف فـي طبيعـة موضوعهـا وفـي نوعيـة المناسبة التى أملتها على خواطر شاعرنا وهـى قصيدة قالهـا حـافظ فـي حفـل أقامتـه الجمعيـة الخيريـة الاسـلامية ، وقـد صـاغ حـافظ قصيدتـه بأسلوب بارع إذ جعلها على لسان صبى ممـن كفلتهـم الجمعيـة وعلمتهـم ونشأتهم تنشئة صـالحة – وكان المتوقع فـي مثل تلـك المناسـبة أن يشـيد الشاعر بالقائمين على أمر الجمعية والمساهمين فـي إنجـاح نشـاطها مـن ذوى المكانة والنفوذ من أمـثال : الشيخ محمد عبده ، وحسن عاصم ،

والسلطان حسين كامل وأضرابهم ولكنه سلك طريقا آخر وجعل وكده بيان الأثر الباقي لأعمال تلك الجمعية والمهام المنوطة بها بأسلوب عملى ومثل حى يقنع السامع والقارىء بدورها ويدفعه للمشاركة في دعم نشاطها وإدراك أهميتها وجدواها في خدمة المجتمع والاسهام في كفالة اليتامى وإيواء المشردين ونصرة الضعفاء ومعاونة البائسين .

ولقد بلغ حافظ بقصيدته تلك ما أراد من أقرب السبل وبأنجح الوسائل وأقنع الحجج وأقوى البراهين دون أن يبدىء ويعيد في الإشادة بشخص أو أشخاص أو أن يطيل في شرح أهداف الجمعية وأهمية دورها بكلام نظري وسرد إنشائي . ولنتأمل تصويره الرائع لبؤس ذلك الفتى الذي صاغ القصيدة على لسانه إذ يبدأ مصورا معاناته قبل أن تكفله الجمعية بقوله :

قضيت عهد حداثتي ... ما بين ذل واغتراب
لم يغن عنى بين مشرقها ... ومغربها اضطراب
صفرت يدي فخوى لها ... رأسى وجوفي والوطاب
وأنا ابن عشر ليس في ... طوقي مكافحة الصعاب

ويمضي على هذا النحو المؤثر من تصوير البؤس والتشرد والحرمان إلى أن يقول ممهدا لتغيير حاله وابتسام الأيام له ورعاية الأقدار لضعفه ومعاناته بأن قيضت له أن تمتد اليه مواساة هذه الجمعية فيتبدل بؤسه نعيما وشقاؤه سعادة ونحسه سعدا... يقول :

ما زلت أوسع محنتي ... صبرا واحتمل العذاب
حتى تنفس صبح إقبالي ... ونجم النحس غاب
فتلقفتني فتية ... رحب الشمائل والجناب
مهدوا لأنفسهم بما ... صنعوه زلفى واحتساب
وعدوا إلى الحسنى كما ... تعدو المطهمة العراب

ثم يبين أثر تلك الكفالة الطيبة عليه في خلقه وخلقه فيقول :

فتحوا المدارس حسبة وتنظروا حسن المآب
فيها تبينت الهـــدى وقرأت فاتحة الكتاب
وبها صدفت عن الضـــلالة واهتديت الى الصواب
وغدوت إنسانا تجملـــــه الفضـائل لا الثيـــاب

ولم يفت حافظـا أن يشيد بـأهل الخير والوجهـاء الذين كـانت لهم أيـاد مذكورة في تدعيم هذه الجمعيـة وحث النـاس علـى بـذل مـا يستطيعون وتبصيرهم بأهمية الدور الذي يمكن لها أن تقوم بـه إذ أحسن القـائمون عليها العمل وأخلصوا وتفانوا فيقول :

جمعية خـــيريـــة قامت لتخفيف المصـاب
قد كان فيها عبـــده غوثا يلبى من أهـــاب
لم يدع مسـماحا إلى انعاشـــها إلا أجـــاب
ولعاصم أثر بهـــا باق وذكر مســـتطاب
لولا حسين لم تـــدم إلا كما دام الحبـــاب
الله أدركهـــا بـــه بحرا موارده عـــذاب
ياواهب الآلاف كـم طوقت بالمنن الرقـــاب
مهـدت للأخيـــار ميـــدان السـباق الـــى الثـــواب

وتلك إشارة ذات مغزى ودلالة على الرغم من عدم إطالـة الشـاعر فيهـا فقد قـامت تلـك الجمعيـة لتخفيـف آثـار الظلـم الاجتمـاعي وفسـاد الأوضـاع الـذي نتـج عـن التميز الطبقـي واتسـاع الهـوة بيـن الأغنيـاء المترفين والفقراء المعدمين ، يأتي بعد ذلك الثناء علـى من قـامت علـى جهودهم الجمعية وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده الـذي كـان عونـا لهـا بماله وصلاته إذ لم يدع موسرا معروفا بالبذل الا أجابه ، وما غاب عـن مساندتها حتى غيبه الموت . وأشاد حافظ أيضا بالسيد حسن عاصم وبين أثره الماثل في إنهاض الجمعية وتدعيم نشاطها ، ثم جعل مسك الختام

ثناءه على السلطان حسين كامل الذي وهب للجمعية الآلاف ومهدلأهل الخـــير بصنائعه ميدان السباق الى أعمال البر التـى تفتـح لهـم أبـواب الثواب ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسـون .

وهكذا وظف شاعرنا المناسبة للتعبير عن أمل يشـغل الأمـة وتهفـو نفوس المخلصين من أبنائها لبلوغه وهو تحقيق الكفالة لليتـامى ومواسـاة المحتاجين وإيواء المشردين وهي مهمة لا ينهض بها فـرد أو أفـراد بـل تتطلب جهودا جماعية منظمـة يـؤدي مـن خلالهـا الموسـرون بعـض مـا يجـب عليهـم طالمـا أن مؤسسـات الدولـة قصـرت عـن أداء ذلـك الـدور وبمثل تلك الجهود الخيرة تعالج مشكلات المجتمع وسلبيلته التى مـا كـان لهـا أن تستشـري لـولا وجـود الخلـل فـي نظامـــه السياســي ومؤسســاته الاجتماعية .

* * *

وثمة درة أخرى من درر شعر المناسبات عند شـاعر النيـل ، ومـا أكثر ما فيها من درر غوال ! أكتفـي هنـا بالإشـارة اليهـا وهـي قصيدتـه التى أنشدها في حفل أقامته مدرسة البنات ببورسعيد سنة 1910 م ولهذه الحفلية شهرة فما يزال كثيرون من شداة الأدب يرددون أبياتا منها عندما يتحدثون عن العناية بأمرتربية البنات والعناية بأمهات المستقبل وراعيات الأجيال الواعدة ومن منا لم يردد قول حافظ الذائع :

الأم مدرسـة إذا أعددتهـــا أعددت شعبا طيب الأعراق

هذه القصيدة تكشف بجـلاء الظـاهرة التـي أعنيهـا فـي هـذه المقالـة وهي ظاهرة توظيف المناسبة والسمو بها الى معـالى المعـاني وكبريـات القضايا وليس مجرد الوقوف عند حدود المناسبة وتداعياتها القريبة .

بدأ حافظ حفليته متغزلا كعادة الشعراء العرب ولكنه لـم يتغـزل فـي فتاة يهواها أو غانية سبت لبه كما يصنع غيره من الشعراء وإنما تغـزل

في محبوبة لا يعاب عاشقها ولا يلام المتيم المفرط بغرامها ، تغزل في مصر وطنه ومهوى فؤاده وتمنى لها الحرية والرفعة ، وأن تسود بين بنيها الأخلاق الفاضلة والشيم الرفيعة . يقول :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي ... في حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحمل في هواك صبابة ... يامصر قد خرجت عن الأطواق
لهفي عليك متى أراك طليقة ... يحمي كريم حماك شعب راقي
إني لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاقي
وتهزني ذكرى المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق

وبعد هذه المقدمة الغزلية شكلا الوطنية مضمونا يقود حافظ سامعيه ومحبي شعره إلى هدفه النبيل وغايته السامية فهو إذ يشيد بأهمية العلم ودوره في نهضة الأمم والسمو بأبنائها لا يغفل عن الربط بين العلم والأخلاق ربطا رائعا ، لا تنفصم عُراه.ويؤكد ذلك بأمثلة من الحياة لنماذج من الموسومين بالعلم والمعرفة ولكنهم حرموا الخلق الكريم فكان علمهم وبالا على أنفسهم وشرا مستطيرا على مجتمعهم وضرب لذلك أمثلة متنوعة منها الفقيه الذي يسخر فقهه للمكائد وتحليل المحرمات والطبيب الذي لا يرعى الله ولا الخلق في مهنته والمهندس الذي يخون الأمانة والكاتب الذي يزور الحقائق ويزيف على قرائه .

ثم ينتهي الى لب الحفلية ومحورها إذ يطرح رأيه في تربية الفتاة المسلمة ويوضح أهمية التنشئة الصالحة لها والدور الكبير المنشود منها مستقبلا في بناء الأسرة ورعاية الأولاد وإعداد الأجيال الصالحة ويلمس أمورا جوهرية كانت في وقتها ذلك موضع جدل شديد بين المتحمسين لتعليم المرأة وتحريرها فيما زعموا والداعين إلى احتجابها خشية السفور المؤدي للفساد ، ولننظر طرح حافظ لهذه الأفكار البالغة الأهمية في بيان واضح جلي لا التواء فيه ولا غموض وهو إذ يلمس

القضية يسلك فيها مسلكا معتدلا لا تفريط فيه ولا إفراط ، وينظر الى الجوهر لا الطلاء ، ويغلب المصلحة لا الهوى . ويرتكز على المبادىء القويمة التى تستلهم روح الاسلام لا الأفكار الزائفة التي يروج لها أذناب الغرب المفتونون بمدنيته .

وكأن الأمة تعبر على لسان شاعرها الملهم تقول :

من لي بتربية البنات فإنها ... في الشرق علة ذلك الاخفـــاق
الأم مدرسة إذا أعددتهـا ... أعـددت شـعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالـري أورق أيمـا إيـراق
الأم أستاذ الأسـاتذة الألـى ... شغلت مآثرهم مدى الآفـاق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن في الأسـواق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفـوا ... في الحجب والتضييق والإرهـاق
ليست نساؤكم حلى وجواهـرا ... خوف الضياع تصان في الأحقاق
فتوسطوافي الحالتين وأنصـفوا ... فالشـر في التضـييق والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنهـا ... في الموقفين لهن خير وثـاق
وعليكم أن تسـتبين بنـاتكم ... نور الهدى وعلى الحياء الباقـي

* * *

ولنحلق مع شاعرنا في مناسبة أخرى أملت عليه قصيدة تعد من أروع ما أفرزته قريحته الشاعرة وهي قصيدة ' مصر تتحدث عن نفسها ' وقد أنشدها في الحفل الذي أقيم لتكريم عدلي يكن باشا بعد عودته من أوربا قاطعا المفاوضة مع الانجليز ومستقيلا من الوزارة سنة 1921 م

وكانت المفاوضات بين مصر وانجلترا قد مرت بفترة حرجة واضطربت الأوضاع السياسية في مصر وتعاقبت عليها الحكومات وكلها سقط بسبب تعنت الانجليز في قبول طلب مصر بالغاء الحماية .

وكان عدلي يكن رئيسا للوزارة وسافر ليفاوض الانجليز ولما فشلت المفاوضات في تحقيق أهداف مصر قاطعها وعاد فقدم استقالته فكرمته الأمة وكرمه شاعرها شاعر النيل بحفليته تلك وسنلحظ أنها تمجيد لمصر وإشادة بمآثرها وإعلاء لشأنها وفخار بأهلها ودعوة الى اتحاد الكلمة ونبذ الخلاف وتوحيد الصفوف بين زعماء الأمة ورؤساء الأحزاب ، ولم يشغل شخص المحتفى به من القصيدة شيئا ، بل إن الشاعر لم يذكره من قريب ولا بعيد ولولا اشارة جامع الديوان الى مناسبة القصيدة ما عرفنا عنه شيئا ، وذلك يؤكد ما قررته آنفا من أن حافظا لم يكن يعنى بأشخاص بقدر ما كان يعنى بمعان وآمال كبار .

ولنتأمل كيف استلهم من تلك المناسبةالتى كانت تحيط بالكفاح الوطني فيها الأخطار الجسام ، ويتبدى مستقبل الخلاص من الوجود الأجنبي وميضا خافتا تكتنفه الظلمات ويحتوشه الضباب ويكاد التعلق به يكون سرابا لا حقيقة له ... كيف يتراءى للشاعر العظيم من ثنايا تلك الرؤى الغائمة – الأمل الواعد الذي يبعثه في النفوس مستوحيا إياه من ماض مصر العريق وكفاح أبنائها الشرفاء ، وكيف يعقد من ذلك كله أكاليل من الغار تتوج هامات زعمائها الأفذاذ فتكون زادا روحيا تتقشع معه سحب اليأس ويعظم على هديه الرجاء وتلتف حول أضوائه الهمم ، وتحتشد لاحيائه النفوس .

لقد استوحى حافظ من إباء زعماء الحركة الوطنية على اختلاف انتماءاتهم الحزبية روح مصر الأبية وأصالتها السامقة فتمثلها في ذلك الموقف فخورة بأبنائها حانية عليهم قريرة العين بمواقفهم ، تهيب بهم دوما أن يكونوا عند حسن ظنها ، وتهتف بأعلى صوتها هؤلاء أبنائي الذين اعتز بهم ويعتزون بي ، وتطرد بوطنيتهم أمجادي ومناقبي .

وانظر إلى الشاعر العظيم كيف تخيل مصر تبعث نبعا للعزة وموطنا للكرامة، تتأمل الخلق ينظرون إليها فى إكبار وهى ترسى قواعد المجد دون أن يجاريها فى ذلك أو يدانيها أحد ، وأنى لأمة أن تغض من شأن مصر وأبنائها وقد كفاها بناة الأهرام وصناع المجد القديم الباقى على الأيام الماثل عبر العصور أن تتكلف الرد على منتقصيها أو تعنى بالتدليل على انفرادها بالسبق ، أين منها الإنجليز أوغيرهم ممن ليس لهم فى الحضارة قدم ولا فى التاريخ ذكر ، إنها منافسة محسومة حازت مصر فيها قصب السبق ، وتفردت وحدها بالمجد .

وانظر إليه مرة أخرى وقد جعل مصر تتراءى عبر مسيرة التاريخ الطويل فى الشرق كله تاج العلاء وواسطة العقد ، وكيف ألمح إلى كفاحها المرير ضد الكائدين لها والطامعين فى إقصائها عن مكانتها كيف قهرتهم وردتهم على أعقابهم مدحورين وكيف استنتج من ذلك أن أبناء مصر ليسوا بأدنى من سواهم ولولا العوائق التى كبلهم بها المستعمرون والظلم الذى وقع عليهم والطغيان الذى تعرضوا له لكانوا بأرفع مكانة وأعز منزلة .

والمتأمل للنسق الفكري العام للقصيدة يرى أن حافظا انطلق فيها من أهداف محددة كانت بواعثه لقول ما قال وهي تتصل أوثق اتصال بمناسبة القصيدة وما أحاط بالمرحلة الدقيقة من مراحل الكفاح الوطني التى قيلت فيها .

ويمكننا أن نتبين من تسلسل القصيدة المعنوي هذة الجزئيات :

أولا: استعراض مصر لمآثرها وأمجادها وبيان نديتها لانجلترا وغيرها من دول الغرب لولا ما منيت به من تسلط المستعمرين وفساد الحكام المنصبين .

ثانيا : تفنيد دعاوى الانجليز في ابقاء الحماية على مصر بحجة أنها غير

مؤهلة لإدارة شئون البلاد وقد رتب حافظ تلك الجزئية على سابقتها .

ثالثا- الاشادة بالكفاح الوطني لأبناء مصر وزعمائها .

رابعا: إسداء النصح للزعماء الوطنيين بالصبر والتنبه للمكائد وجمع الكلمة وإنكار الذات وإصلاح ذات البين .

وهي جوانب كما نرى ليس فيها إشادة بشخص عدلي أو الدخول في تفصيلات موقفه ، بل تدور في مجملها حول معان ومشاعر أفرزها ذلك الموقف تتجلى في احساس المصريين بالظلم من تسلط الانجليز وتشبثهم بالبقاء في مصر والسيطرة على مقدراتها ، ورفض الخضوع لضغوطهم أو الاذعان لمشيئتهم .والتنديد بادعاءاتهم الكاذبة حول ضرورة بقائهم في مصر وعبثهم بمصيرها .

ولنتابع مقتطفات من تلك القصيدة الرائعة في قسمها الأول الذي تسجل فيه مصر مفاخرها وتستعرض أمجادها يقول حافظ على لسانها :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة الأهرام في سالف الد هر كفوني الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مفرق الشر ق ودراته فرائد عقدي
أي شيء في الغرب قد بهر الناس جمالا ولم يكن منه عندي
ورجالي لو أنصفوهم لسادوا من كهول ملء العيون ومرد
لو أصابو لهم مجالا لأبدوا معجزات الذكاء في كل قصد

وهكذا نرى الأدب يبعث الأمل في نفوس الأمة ويهديء من خواطر بنيها الكرماء وزعمائها المخلصين فكأن حافظا يجري على لسان وطنهم العزيز مصر تلك المفاخر والأمجاد ليقول لهم لا تعبأوا بتنقص الانجليز لكم ولا تولوا ازدراءهم هذا اهتماما ولا يَفُتَّنَّ في عضدكم هذا التسلط فأنتم أعرق منهم مجدا وأعلى شأنا وأرسخ حضارة

ولا يوجد عند هؤلاء شيئ زائد عما عندكم وليس رجالهم بأفضل منكم ولو أُنصف أبناء مصر لصنعوا المعجزات .

بعد ذلك يسلك حافظ في تهدئة الخواطر وبث روح الصمود مسلكا آخر فيبين كفاح مصر الموصول ضد الطامعين فيها الباغين عليها وكيف نصرها الله عليهم مرات ومرات فبقيت مصر وزال من أرادوا النيل منها أو القضاء عليها يقول :

أنا ان قدر الإلـــه مماتـي ... لاترى الشرق يرفع الرأس بعدي
ما رماني رام وراح سليمـا ... من قديم عنايـة الله جنـدي
كم بغت دولة على وجارت ... ثم زالت وتلك عقبى التعـدي
إنني حرة كسـرت قيودي ... رغم رقبى العدا وقطعت قـدي
قل لمن أنكروا مفاخر قومي ... مثل ما أنكـروا مـآثر ولـدي
هل وقفتم بقمة الهرم الأكبر ... يوما فريتم بعض جهـدي
هل رأيتم تلك النقوش اللواتي ... أعجزت طوق صنعة المتحـدي
حال لون النهار من قدم العهد ... وما مس لونها طول عهـدي
هل فهمتم أسرار ما كان عندي ... من علوم مخبوءة طي بـردي
ذاك فن التحنيط قد غلب الدهر ... وأبلى البلى وأعجز نـدي

وبعد أن يعدد حافظ كل هاتيك المآثر ويستوحي من التاريخ القديم تقدم مصر العلمي والحضاري المتمثل في بناء الأهرامات ، والنقوش الماثلة على المعابد والهياكل بألوانها وشخوصها . والتحنيط والتشريع وعلم النجوم والشعر والأساطيل

ينتقل الى القسم الثاني من قصيدته وفيه نلمس براعة حافظ في الربط بين معاني قصائده إذ نراه يقول على لسان مصر :

أتراني وقد طويت حياتي ... في مراس لم أبلغ اليوم رشدي

وتأمل هذا الاستفهام المستنكر الساخر الذي يهدم دعاوى الانجليز

ويجعل منها أضحوكة لا يسيغها عاقل ولا يصدقها من لديه مثقال ذرة من تفكير صحيح .

أيمكن أن تكون مصر ذات الأمجاد والسبق والريادة في شتى جوانب المعرفة وميادين العمران والحضارة .... أمصر هذه التي قطعت من حياتها تلك الأشواط وطوت تلك الصحائف في الدربة والمراس لم تبلغ بعد سن الرشد كما يزعم الانجليز ؟! .

وينطلق حافظ بعد ذلك في تساؤلاته المستنكرة حينا والمتعجبة حينا آخر والحائرة في كل الأحيان :

أي شعب أحق مني بعيش وارف الظل أخضر اللون رغد ؟
أمن العدل أنهم يردون الـ ماء صفوا وأن يكدر وردي
أمن الحق أنهم يطلقون الـ ..... أسد منهم وأن تقيدأسدي ؟

ثم يصور طول المعاناة وامتداد جثوم المستعمر الدخيل على مقدرات البلاد وظلمه لأهلها ، ثم مقاومة بنيها لهذا الظلم فيقول :

نصف قرن إلا قليلا أعاني ما يعاني هوانه كل عبد
نظر الله لى فأرشد أبنا ئي فشدوا إلى العلا أي شد
إنما الحق قوة من قوي الد يان أمضى من كل أبيض هندي

ثم يرتقي في مدارج الحماسة الوطنية فيقول على لسان مصرنا الغالية :

قد وعدت العلا بكل ابي من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي

ثم توصي الشاعر أبناء مصر بإعلاء مجدها ورفعة دولتها فيقول :

أمهروها بالروح فهي عروس تشنأ المهر من عروض ونقد
وردوا بي مناهل العز حتى يخطب النجم في المجرة ودي
وتواصوا بالصبر فالصبرإن فارق قوما فما له من مسد
إن في الغرب أعينا راصدات كحلتها الأطماع فيكم بسهد

فوقها مجهر يريها خفايـــا كم ويطوي شعاعه كل بعـــد
فاتقوها بجنة من وئـــام غير رث العرا وسعي وكـــد
نحن نجتاز موقفا تعـــثرالآ راء فيـــه وعثرة الرأي تـردي
فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا جانبيه بعـــزمـة المســـتعد
إننا عنـــد فجر ليل طويل قـد قطعناه بين سهـد ووجـد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا فالمعالي مخطوبة للمجـــــد

أرأيت كيف جعل حافظ المناسبة مرتكزا لبث روح الحب للوطن وتغذية حماس بنيه والربط على القلوب في ذلك الموقف الصعب وتلك المرحلة الدقيقة من مراحل الكفاح ! ثم تأمل هذا النسق المعنوي البديع الذي جعل فيه الشاعر قصيدته بنية متماسكة لكل جزء منها دورها الأصيل في ارتفاع البنيان وقوة الاقناع وشيوع المعاني التي أراد أن يبثها في النفوس والغذاء الروحي الذي قصد إلى أن تفيد منه الأمة أفرادا وزعماء ، والدرس العظيم في الوطنية والثبات على المبدأ والإباء وتحدي الأعداء على الرغم من سطوتهم وبطشهم .

وهكذا نرى أن المناسبة كانت النبع الذي تدفقت منه التجربة ثرة واعدة تطفىء الظمأ وتروى الأرواح وتبعث الحياة في القلوب المتفطرة وتجمع الشمل المشتت وتعيد إلى الأمة الثقة بالنفس والصبر على الشدائد والثبات في الحق والإصرار على استرداد الحق المغتصب وإقصاء العدو المتسلط .

* * *

وآخر ما أطرحه في هذه الدراسة الموجزة قصيدة يظن من يقرأ مناسبتها للوهلة الأولى أنها لن تعدو أن تكون لونا من المجاملة أو التملق وهي قصيدة قالها في استقبال المعتمد الأنجليزي السير غورست سنة 1907م وقد زعم بعض من تنقص حافظا أنه كان يمالىء الانجليز

ويتملقهم وأنه كان يهادنهم ويداريهم - وفي القصيدةالتى تقدمت ما يدحض ذلك وهي قيلت في الحقبة التالية لثورة 1919م أما التى معنا هنا فقيلت في مرحلة متقدمة كما أشرت وسنرى مع ذلك أن فيها من إبداء العداء للانجليز والرغبة القوية في رحيلهم عن مصر ما يدحض اتهام حافظ بما اتهم به من ممالأة ومداجاة .

والقصيدة التي نستعرضها هنا تتألف من فكرتين أساسيتين :

الأولى : مطارحة شعرية مع منابع الالهام الشعري أو كما عبر حافظ " بنات الشعر" ومن خلال تلك المطارحة يوضح أنه لم يحرك خواطره غرام أو أطلال حبيب وإنما حركها أساه لحال أمته .

الأخرى : الشكوى من تسلط الانجليز وفيها يشكو المعتمد الراحل للمعتمد الجديد ويقطر هذا الجانب سخرية مريرة وتوجسا من نوايا الانجليز ومكائدهم . فهو شكوى صارخة وإدانات دامغة لنوايا الانجليز وأفاعيلهم ومطالبة صريحة لهم بالتخلي عن شئون البلاد لأهلها وذويها أو تصريف أمورها من منطلق العدل الواجب مراعاته وحقهم في السيادة على مقدراتهم .

والقصيدة كلها توظيف للمناسبة بما يحقق أهداف الشاعر ومقاصده ، ولم تحظ المناسبة نفسها من عناية حافظ أو قصيدته بشيئ يذكر ولا يجد القارىء فيها أثرا للممالأة أو المصانعة بل جاءت نسيجا متماسكا ظاهره المناصحة والعتاب وباطنه السخط والتوجس والرغبة الأكيدة في تخليص مصر من نير التسلط الأجنبي على سيادتها الوطنية .

وتأمل معي هذه المطارحة البديعة التي يبدي الشاعر من خلالها أهمية الموضوع الذي يود أن يعبر عنه شعره وتبين عنه قصيدته إذ يقول :

بنات الشعر بالنفحات جودي فهذا يوم شاعرك المجيد

أطلى واسفري ودعيه يحـي بما توحين أيام الرشـيد
فما أنا واقف برسـوم دار أسـائلها ولا كلف برود
ولا مسـتنزل هبة بمـدح ولا مسـتنجز حر الوعود
ولكنـي وقفت أنـوح نوحا على قومي وأهتف بالنشيد
وأدفع عنهم بشبـا يـراع يصـول بكل قافية شـرود

ثم انظر اليه وهو يربط تلك الغاية التى من أجلها أهاب ببنـات الشـعر أن تسعفه وهي الشكوى من ظلم الانجليز وهي ليست شكوى العميد إلـى العميد كما قال حافظ ولكنها تسجيل لبشاعة ما خلفه الوجود الانجليزي في مصر وما صنعه كرومر وصنائعه من أمثال دنلوب ...وغيره .

يقول :

بنات الشعر إن هي أستعدتنى شكوت من العميد إلى العميد
ولم أجحد عوارفه ولكـن رأيت الـمن داعيـة الجحـود
أذيقونا الرجاء فقد ظمئنـا بعهد المـصلحين إلى الورود
ومنوا بالوجود فقد جهلنـا بفضل وجـودكم معنى الوجود
إذا اعلولى الصياح فلا تلمنا فإن الناس فـي جهد جهيـد
على قدر الأذى والظلم يعلـو صياح المشـفقين من المزيـد
جراح في النفوس نغرن نغرا وكن قد اندمـلن على الصديـد

وتأمل في هذا السياق رغبة حافظ في إيقاظ الشعور الوطنى لدى المصريين في قوله :

فليت (كرومرا) قد دام فينـا يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف (مصر) آنا بعد آن بمجلود ومقتول شـهيد

فهل كان حـافظ يتمنـى علـى الحقيقـة بقـاء كرومـر ذلـك الطاغيـة الـذي ارتكب مذبحة دنشواي ؟ كلا ولكنه تمنى بقاءه لتشتعل الثورة في النفوس وهي الغاية التى يهدف اليها ويلمح لمغزاها بقوله :

لننزع هذه الأكفان عنـــا ونبعث في العوالم من جديد

وفي هذا القسم بعد ذلك ألوان من إدانة الوصاية لانجليزية على مصر وكشف مخازيها وبطشها ، ممثلة في حادثة دنشواي ، ومحاولات (دنلوب) الذي عينه كرومر مستشار لوزارة المعارف فجهد في طمس الهوية الاسلامية والطابع العربي عن التعليم والثقافة ، وقمع الإرادة الوطنية ممثلا في تعطيل إرادة مجلس الشيوخ والجمعية الوطنية وتعطيل الشورى ... وتأمل هذا التهكم المرير من حافظ لموظفي الانجليز في مصر وما يجلبونه على أهلها من ويلات في قوله :

أرى أحداثكم ملكوا علينا (بمصر) موارد العيش الرغيد
وقد ضقنا بهم وأبيك ذرعا وضاق بحملهم ذرع البريد
أكل موظف منكم قدير على التشريع في ظل العميد؟
فضع حدا لهم وانظر إلينا إذا أنصفتنا نظر الودود
وخبرهم وأنت بنا خبير بأن الذل شنشنة العبيد
وأن نفوس هذا الخلق تأبى لغير إلهها ذل السجود
وول أمورنا الأخيار منا نثب بهم إلى الشأو البعيد

ثم يطالب حافظ بإنشاء الجامعة المصرية التى كانت حلما يراود المخلصين من المثقفين لما لها من أثر في النهضة الفكرية والاعتماد على الذات والتصدي لمخططات الانجليز لجعل الدارسين منقادين لتوجهاتهم وتعويق التعليم بالمراحل العليا .

وتأمل ذلك الختام البارع للقصيدة الذي يوضح أن حافظا يتوجس من وجود هؤلاء الانجليز الشر ولا يطمئن إلى أن تغيير شخص منهم بآخر سيغير من الواقع المر شيئا إذ يقول :

وما أدري وقد زودت شعري وظني فيك بالأمل الوطيد
أجئت تحوطنا وترد عنا وترفعنا إلى أوج السعود

أم اللردالذي أنحى علينـــــا أتى في ثوب معتمد جديد ؟!!

إنها حلقات متصلة من النضال الوطني الذي جعل حافظ شعره تعبيرا عنه وسلاحا مصلتا لا يني ينافح به الانجليز المحتلين حينا وضد عوامل التقهقر والضغف في مواطن أخرى ومناسبات أو بواعث حفزته على أن يتعهد الأمة بالتبصير والتوجيه وبث روح الحمية واستثارة الهمم لتغيير الواقع الذي لايرضي والمضي قدما في مدارج النهوض السياسي والاجتماعي والثقافي .

* * *

واختتم هذه الباقة من شعر حافظ بالوقوف عند زعم طالما ردده خصوم المدرسة المحافظة وهو أن شعرهم لا شخصية فيه ولا صدق ينبعث منه .

وسأترك الحكم للقارىء الذي تابع ما كتبته من بداية هذه الدراسة .

فهل يمكننا أن نصدق ما يقوله هؤلاء عن شاعر كحافظ ابراهيم وقد رأينا ولاءه لأمته واهتمامه بشواغلها وهمومها وحرصه على رفعتها وإعلاء شأنها ؟

وهل نطلب من الشاعر أن يكشف لنا عن شواغله الذاتية أو إحساساته الشخصية مهما كانت خصوصيتها وضآلة شأنها ، ونعيبه إذا هو جعل من هموم وطنه ومشكلات أمته شغله وهمه وقضيته ؟

ألا إنها من أكبر المغالطات التى ينزلق اليه الدارسون إن هم صدقوا هذا الزعم وفهموا الغاية من الشعر على ذلك النحو !.

إن تقويم الشعر ونقده ينبغي أن يراعى فيه بيئة الشاعر، واهتماماته الفكرية وبواعثه الوجدانية .

فليس الشعر الجيد بالضرورة ما انحصر في نطاق الذات وارتبط بالوجدان الفردي ولا هو محصور في التجارب المتعلقة بالحياة العامة

والمشكلات الملحة للأمة التي ينتمي الشاعر اليها ويتأثر حتما بما يحيط بها ويشغل الغير من أبنائه ، والفصل بين الجانبين جد عسير فليس من المستطاع أن نفصل ذات الشاعر عن محيط بيئته وهو مهما أوغل في التعبير الذاتي لابد متأثر ولو من قبيل السلب ببيئته ومجتمعه ، فالغلو في أي جانب يؤدي إلى ضعف الباعث الشعري ومن ثم ينتفي التواصل بين الشاعر وجمهوره ويحدث الفصام بينهما .

إننا لو تروينا في مسيرة الصراع الفكري بين المذاهب الأدبية لدى الأوربيين لرأينا فيه مصداق ما نذهب اليه إذ أدى الغلو من جانب نقاد الكلاسيكية في تنحية كل ما يتصل بالوجدان الفردي وفرض ما يراه العقل وتفرضه الطبقة المسيطرة على مقدرات المجتمع وثقافته والأدب المقدم له .....ـ أدى ذلك إلى ظهور الحركة الرومانسية ردا على هذا الغلو ودعما للحرية الذاتية .وجعل الشعر تعبيرا عن الذات وهروبا من تقاليد الحياة التى فرضها الكلاسيكيون وترتب على المغالاة في هذا الجانب الهروبى أن سئم الأدباء والنقاد ومعهم الجمهور هذا الجنوح للذاتية فظهرت الدعوة للبرناسية والواقعية محاولة إعادة الأمور إلى نصابها فيما يتصل بالتجاذب بين الذاتية والموضوعية أو بين الوجدان الفردي والوجدان الاجتماعي .

ومن ثم يتأكد لدينا أن حافظا لم يختف أو لم تختف شخصيته وذاتيته وراء ذلك التوجه الاجتماعي وأعنى به الاهتمام بقضايا الجماعة التى ينتمي اليها سواء في السياسة أو الثقافة أو ظواهر المجتمع ومشكلاته .

وهل يعاب الشاعر إذا كان توجهه ذاك نابعا من ذاته ؟ ألا نأسى لما يصيب بلادنا وأمتنا من نكسات ؟ ألا تتعايش مشاعرنا الذاتية وتضطرب حنايا لما يحل بوطننا من أرزاء ؟ ألا نفرح آحاد ومجتمعين

لما تحققه أوطاننا من أمجاد وما تحرزه من انتصارات ؟ فاذا عبر أحدنا عن ذلك صادقا فيما يقول أيلام علـى ذلك؟ وهل يسوغ أن يقال له عند ئذ إن شخصيتك غير وضحة في تعبيرك ؟

انها كما أشرت ادعاءات ظاهرها الصواب ولكنها تنطوي في حقيقتها على مغالطة وتزيف . ولعل هذه الجزئية الأخيرة تقودنا إلى حقيقة أردت التنبيه عليها وهي أن كثيرا مما شاع بين باحثينا من قناعات وتقريرات توشك في عرف كثير منهم أن تكون من قبيل الثوابت التى لا تقبل النقاش ، وهي في حقيقة الأمر مبنية على تعميم غير دقيق أو مغالطة مغرضة ، وما أجدر أن تراجع أمثال تلك المزاعموتلك قضية أرى أنها تستأهل أن يماط عنها اللثام في مقال قادم أعد به باذن الله .

(والله الموفق)